الشخصية المثقفة: «في وضعها ومعيشتها ووعيها، نمط حياة ومشكلات وأشواق المجتمع الذي تنبثق منه» (ص: 49).

ومع افتراض أن جميع الشخصيات التي صورها جبرا إبراهيم جبرا تعكس موقفاً واحداً، أو على الأصح تمثل نمط حياة ووعي واحدين، وليكن ذلك وارداً في صورة سلبية، أليس من واجب الناقد أن يتساءل عن موقف الكاتب بدل أن ينتقد الصورة المعروضة علينا جميعاً لهذه الشخصيات، ذلك أن وصف طبقة ـ حتى لو تم تقديمه بطريقة تبدو شديدة الحياد ـ لا يدل بالضرورة على أن الروائي يوافق على ما يجري في العالم الموصوف، بل قد يكون الأمر عكس ذلك تماماً، أي دالاً على نقد شديد لذلك العالم.

هذا الجانب لم ينتبه إليه محمد كامل الخطيب مع أن كثيراً من رواد المنهج الاجتماعي الذي يأخذ به هو أيضاً، تحدثوا عن الطابع الانتقادي لاستخدام الوصف في الروايات، وخاصة في معرض تأملاتهم النقدية في أعمال بالزاك. ونذكر في هذا الصدد ما قاله جورج لكاتش عن هذا الروائي:

«إن عظمة بالزاك تكمن بالتحديد في هذا النقد الذاتي الذي وجّهه دون تسامح لتصوراته، ولأمانيه الغالية جداً، ولمعتقداته الراسخة، كل ذلك من خلال **الوصف الدقيق** بلا رحمة للواقع»[130].

إذن يمكن للوصف وحده أن يتحول إلى انتقاد شديد بدل أن يكون تزكية لما هو موصوف. غير أن محمد كامل الخطيب لم يلتفت أبداً إلى هذه الحقيقة التي كان النقد الاجتماعي قد عرفها من قبل، فكان شديد الحذر ـ أي هذا النقد ـ في التعامل مع بعض الروائيين الذين وصفوا الواقع دون أن يعلنوا مباشرة عن مواقفهم منه، وعلى رأسهم بالزاك. والواقع أن الناقد لو كان قد آستحضر الاتجاه الواقعي النقدي في الأدب وما قاله النقد الاجتماعي عنه لما وقع في شرك النظرة الإديولوجية المتسرعة التي توجّه انتقادها للعالم الموصوف دون اكتراث برأي الواصف. وإذا كان النقد الاجتماعي قد عرف لعبة الوصف هذه، فإن المناهج المعاصرة قد عمقت فهم هذه النقطة بالذات، فهذا «هنري متران» يتحدث عن ثلاثة مستويات للقراءة، ممكنة لأي عمل روائي: «قراءة واقعية» على مستوى السطح، وتهتم بمستوى الدقة الوثائقية للصورة الروائية الموصوفة. وفي هذه الحالة يمكن أن تقرأ الرواية باعتبارها وثيقة تاريخية واقتصادية واجتماعية، وقراءة أسلوبية تقضي بالتساؤل عمّا هو النسق الذي تكونت عبره الصورة الموصوفة؟ أما القراءة الثالثة فهي القراءة الوظيفية التي تنظر إلى الشخصيات في ضوء وضعها داخل النسق العام للنص، لا

---

(130) George Lukacs: **Balzac et le réalisme français.** Maspero. 1973 P. 20.